

أبوسمبل

عندما تصل إلى مطار أبو سمبل بالطائرة، قادمًا إليها غالبًا من أسوان، تفاجأ بأن هناك ثلاث أو أربع طائرات أخرى تصل معك في نفس اللحظة، وهذا معناه وجود حوالي ألف سائح زائر للمكان في نفس الوقت! هذا دليل لكيد على لتعدام التخطيط، فإن أى شخص لديه حد أنسى من المعرفة بالمكان، يدرك أنه لا يمكن بأى حال من الأحوال، زيارة هذا المعبد الضيق من الداخل، لأكثر من مائتى زائر في الوقت الواحد.

ثم عندما تخرج من المطار، ببطء شديد بسبب التزاحم على باب الخروج الضيق، فإنك تتعمد أن تتأخر قليلا، وذلك حيث إنك تحترم نفسك وتحترم كذلك المجموعة السياحية التى معك، وذلك حتى لا يضطر زبائنك سياح مصر، إلى التزاحم بالأكتاف للخروج من هذا الباب الضيق. وهكذا تكون آخر من يخرج من المطار وتكتشف عدم وجود أى سيارات لنقل سياحك إلى المعبد، وذلك بسبب عدم وجود سيارات أتوبيس كافية لنقل كل المسافرين على هذه الطائرات.

ثم إنك تقابل موظفًا من موظفى المطار، يقف على الباب، لينبه على كل المرشدين بضرورة العودة إلى المطار فى موعد أقصاه ساعة ونصف من الآن! وذلك حيث إن ميعاد الطائرة التى ستقلع عائدة بك إلى أسوان أنت ومجموعتك هو بعد ساعة ونصف! فتحاول أن تلتفت انتباهه إلى أنك مضطر إلى البقاء أمام المطار مدة لا يعلم مداها إلا الله، وتقول له كذلك أنك لا تعلم بدقة ميعاد عودة الأتوبيس بك من المعبد إلى المطار، فيرد عليك بكلمة واحدة هي (هو كده).

عند وصولك إلى المعبد تفاجأ بوجود بوابات حديدية جديدة كان قد تم تركيبها خلال الشهر الماضي، وتفاجأ كذلك بوجود طابور طويل جدًا يمر منه الزوار واحدًا واحدًا، حيث يتم تفتيشهم تفتيشًا دقيقًا، خوفًا من أن يكون أحدهم حاملًا لأية أسلحة، وتتساءل بينك وبين نفسك (ما الداعي لتفتيش نفس السياح عدة مرات عند إقلاع الطائرة من أسوان، ثم عند هبوطها في أبو سمبل؟) مما يفقدك نصف ساعة أخرى.

ثم هناك الطريق الطويل الذي تقطعه مع سياحك على الأقدام، من بوابة دخول منطقة المعبد إلى أمام واجهة المعبد، حيث تقف مع مجموعتك السياحية لتقول لهم (ليس أمامنا الآن إلا نصف ساعة لزيارة المعبد)، يرد عليك أحدهم قائلاً (ما هذا التخريف؟ هل دفعنا حوالى ما يساوى ألف جنيه مصرى لنشاهد المعبد خلال نصف ساعة؟) تحاول إقناعه بأن هذا ليس ذنبك، إنما هو ذنب مصر للطيران، فلا يفتتح. تكون النتيجة هي أن بعض سياحك عند العودة إلى المطار يتخلف عن العودة معك، وبذلك يخلق لك مشكلة حين لا تجده وسط مجموعتك، فتطير طائرتك عائدة بغيرك إلى أسوان، وتنتظر أنت في المطار ثلاث أو أربع ساعات، حتى يحين موعد عودتك بمجموعتك على طائرة أخرى.

تعتقد سلطات المطار، وتعتقد شركة مصر للطيران، أنها بذلك تكون قد انتقمت منك وأغاظتك، أنت المرشد السياحي الذي لا يعرف شغله، وهم لا يدركون أنهم إنما يغيظون السياح، ويفقدونهم متعة الزيارة، ويضيعون عليهم ساعات طويلة من الانتظار في صالات المطارات.

أنا أتساءل: لماذا لا تكون هناك جهة واحدة فقط مسؤولة عن العملية التنظيمية الخاصة بزيارة معابد أبو سمبل، هذه الجهة تجمع بين سلطات مصر للطيران، والإدارة المحلية، ووزارة السياحة؟

إدفو

مشكلة مدينة إدفو هي الحناطير، فهناك المئات منها التي تجوب المدينة في اتجاهين محددين، إما من المراسى السياحية إلى المعبد، أو من المعبد إلى المراسى السياحية، المشكلة هي أن هذه الحناطير تحول رائحة المدينة كلها إلى رائحة براز وبول الخيول التي تقود تلك الحناطير، وأينما كنت في تلك المدينة فإن تلك الرائحة تهل عليك. أنا لا أعرف لماذا لا يطبق نظام شديد في مسألة جمع فضلات تلك الحيوانات في أكياس تعلق على ظهورها، أو على أفخاذها، مثلما يحدث في العديد من بلاد العالم السياحية التي تستعمل مثل تلك الحناطير (فيينا مثلا)، حيث ما تزال تلك الحناطير وسيلة انتقال سياحية معروفة .

ثم إن مشكلة المرشدين السياحيين مع إدفو هي كذلك الحناطير، ولكن ليس بسبب رائحة روث البهائم، وإنما بسبب مشكلة التفاهم مع (العرجية - المقطع جى بالتركية معناه صاحب الشيء أو صاحب المهنة، فنقول مثلا بوهيجى وجزمجي وأجزجى وعرجى والمسألة ليست فيها أية إهانة) التفاهم معهم صعب جدًا، فإذا كنت تعمل مرشدًا سياحيًا ولديك في البرنامج زيارة معبد إدفو، فأنت في محنة شديدة! فعندما تخرج من المعبد بعد انتهاء زيارة سياحك له، لن تجد أبدًا العدد الكافي من الحناطير لنقل كل زبائنك معًا للعودة إلى المركب، وأنت لا تستطيع أن تغادر المعبد بجزء من المجموعة، على أن يلحق بك جزؤها الآخر فيما بعد، فهذا لا يجوز وذلك بسبب مسئولية المرشد المباشرة عن سلامة كل أعضاء مجموعته.

عندما يخرج المرشد من المعبد قد يكتشف اختفاء واحد أو أكثر من العريجية، وقد يكون السبب هو أنه فى طريق الذهاب إلى المعبد كان قد احتال على أحد السياح وحصل منه على مساعدة لوجه الله، مثلاً ورقة بمائة جنيه، وحيث إن هذا المبلغ هو أكثر بمرات مما يكسبه هذا العريجى خلال يوم عمل، ففى هذه الحالة يكتفى هذا العريجى بهذا المبلغ كمكسب لهذا اليوم، وبالتالي يخفى بقية اليوم، وملعون أبو السائح وكذلك أبو المرشد الذى قد يضطره أحدهما إلى العودة إلى العمل.

أو قد يكتشف المرشد أن مجموعة العريجية الذين نقلوه هو وزبائنه فى الذهاب إلى المعبد موجودون الآن عند المرسى فى انتظار نقل مجموعة أخرى من السياح، وأنهم يرسلون إلى المرشد عريجية آخرين من أقاربهم (أولاد أعمامهم وكذلك أولاد أخوالهم) وذلك حيث إن مهنة العريجة هى أكثر المهن انتشاراً فى المدينة، وذلك حيث إنها من أكثر المهن السياحية فى المدينة التى تدر عائداً مجزياً، وعلى المرشد فى تلك الحالة أن يكتشف بنفسه، وعلى مسئوليته وحده، وبدون مساعدة من أى شخص آخر، صلات القرابة تلك بين العريجية وأولاد أعمامهم وكذلك أولاد أخوالهم، وذلك حيث إنهم لا يقولون أى شىء للمرشدين بشكل عام، ناهيك عن ذكر صلات القرابة تلك.

وقد يكتشف المرشد أن عريجته الأصليين موجودون أمام المعبد، ولم يغادروه بتاتاً منذ أن نظوا المرشد مع زبائنه من المرسى إلى المعبد، ولكن المشكلة هى فى الزحام الشديد الذى يتكاثر حول باب الخروج فى المعبد، حيث يتجمع أحياناً فى قمم المواسم آلاف السياح، وكذلك مئات من الحناطير. مما يستحيل معه عبور أى شخص منهم على الآخر.

وقد يكتشف المرشد أن عربجيته الأصليين موجودون أمام المعبد ولكنهم يتجاهلونه، وعندما يلح المرشد في الكلام مع أحد هؤلاء العربجية، الذى ينكر بشدة أية علاقة له بهذا المرشد، يأتى عربجى آخر ويجذب المرشد من كُم قميصه ويذكر له همساً، أن عربجيته موجودون، ولكنهم غير راضين عن مبلغ الإكرامية الذى قبضوه منه فى المرة السابقة، خمسة جنيهاً لكل حنطور، يدفعها المرشد أحياناً من جيبه، ويتناول العربجية عليه، وذلك لأنهم يعتقدون أن كل المرشدين يسرقون كل السياح. (خمسة جنيهاً إكرامية لكل حنطور، وكذلك عشرة جنيهاً عن كل نقلة ذهاب وعودة، أى أن عمل العربجى لأربع نقلات فى اليوم الواحد، يدر عليه عائداً يومياً لا يقل عن ستين جنيهاً، بالإضافة إلى ما قد يحصل عليه كذلك كإكرامية من السياح، ومع ذلك فعربجية إدفو غير راضين).

الإسعاف (وسط البلد)

(١)

ذكرياتي عن هذه المنطقة من مناطق وسط البلد بالقاهرة كلها ذكريات إيجابية، فأنا قبل أن أجيء للإقامة في القاهرة سنة ١٩٧٦، كنت أقص الإعلانات المبوبة من جريدة الأهرام التي تتعلق بالدورات الدراسية والمراكز الثقافية الأجنبية، وأصقها في كراسة يومياتي، وذلك حتى تكون تلك الإعلانات حافزاً لي على المجيء للإقامة في القاهرة، وتحويل أوراقى من طب طنطا إلى طب عين شمس. أتذكر وجود قصاصات عن ثلاثة معاهد إيطالية تقع في منطقة الإسعاف:

أولاً: معهد ليوناردو دافنشى (فنان إيطالى من عصر النهضة) للفنون والعمارة. وكان يمكن دخوله بالثانوية العامة، كما كان يمكن دخوله بالموهلات المتوسطة أو العالية لمتابعة الدراسات الحرة فيه. وقد اختفى هذا المعهد من الوجود في ظروف غامضة.

ثانياً: معهد كلاوديو مونتفيردى (موسيقى إيطالى من عصر النهضة) للموسيقى. وهو المعهد الذى قاوم الاختفاء فترة طويلة، وذلك حتى تمكنت فى أوائل الثمانينيات من متابعة الدراسة فيه، على يد الإيطالية مدام روسى، دراسة العزف على البيانو وقراءة النوتة، ثم اختفى هذا المعهد هو أيضاً فجأة من الوجود.

ثالثاً: معهد دانتي الليجيري (أديب إيطالى من عصر النهضة) للغات. قام هذا المعهد خلال الثلاثين عامًا الأخيرة، وما زال يقوم - والحمد لله - بمهمة تدريس اللغة الإيطالية للمصريين، وهذا هو

ما مكنتني من متابعة الدراسة فيه للغة الإيطالية خلال منتصف التسعينيات، ونجحت في المستويين الأول والثاني، وما زال هذا المعهد يقاوم الاختفاء الفجائي، ويواصل بنجاح مهمته العلمية في تعريف الشعب المصري بالحضارة الإيطالية.

بالإضافة إلى هذه المعاهد الإيطالية المحترمة، فإن هناك كذلك أماكن أخرى جديرة بالاحترام تقع في نفس المنطقة، منها مثلا كنيسة (سانت أندروز) التابعة للجالية الإنجليزية، وقد تابعت فيها دراسة الموسيقى في الثمانينيات بعد اختفاء معهد كلاوديو مونتيغريدي السابق الإشارة إليه. كانت دروس الموسيقى صباح يوم الجمعة من كل أسبوع شبه مجانية، إذ إنك كنت تدفع جنيتها مصريا واحداً مقابل كل درس، وذلك كنوع من المساهمة في نشر الثقافة الموسيقية في مصر، وكانت مسز هايدى المصرية تقوم بتدريس منهج (ترينتي كوليدج في لندن) الذي يقسم الموسيقى النظرية إلى ثمانية مستويات دراسية.

(٢)

توقفت عن دراسة الموسيقى عندما توقفت عن ممارسة مهنة العزف الموسيقي في منتصف الثمانينيات، ولكنني عدت إلى منطقة الإسعاف في صيف ١٩٩٦، وذلك للحصول على كورس مقدمة في علوم الكمبيوتر لمدة ستين ساعة، في مبنى جريدة الأهرام بشوارع الجلاء، وكانت المحاضرة هي الأستاذة سالمة عبد العال، والكتاب الذي درسنه يحمل اسمها كمؤلفة. حاولت لاحقاً متابعة الدراسة في نفس المبنى في كورسات الحاسبات الشخصية، والنوافذ، ومعالجة الكلمات، إلا أن ظروفى لم تكن تسمح أبداً بإنهاء تلك الكورسات.

ثم إن منطقة الإسعاف هي كذلك المنطقة التي يوجد بها معهد الموسيقى العربية، ويقع في شارع رمسيس، وهو المعهد الذي كان قد افتتح سنة ١٩٢٩، في حضور الملك فؤاد، حينما غنى محمد عبد

الوهاب من ألعانه وكلمات أمير الشعراء أحمد شوقى أغنية (فى الليل لما خلى). وكان لهذا المعهد دور كبير فى تكوين العديد من الموسيقيين والملحنين المصريين خلال أجيال متلاحقة منهم. وكنت قد حضرت فى حوالى سنة ١٩٦٥، حين كنت فى الثانية عشرة من عمرى، على مسرح نفس هذا المعهد، من فرقة مسرح القاهرة للعرانس، عرض أوبريت (الليلة الكبيرة)، من تأليف صلاح جاهين، وتلحين سيد مكاوى، وإخراج صلاح السقا. فيما بعد عندما عرض هذا العمل فى التلفزيون المصرى، سجلت الكلمات بخط يدى فى كراستى، وحفظت النص عن ظهر قلب (السلك مقلى / كل وبرق لى / استخار واختار/ فشة أو ممبار/ يلا سمى وكل) أو (أنا شجيع السيمة/ أبو شنب بريمة/ أول ما أقول آليه أب وأصرخ لى صرخة / السبع ينكهرب ويبقى فرخة) ... إلخ.



وهكذا فإن منطقة الإسعاف ترتبط في مخيلتي بكل ما هو جميل وحضارى، منذ طفولتي وحتى صدر شبابى.

أما الآن فإن الصورة جد مختلفة، فكلما جئت قادمًا من الزمالك مشيًا على الأقدام فى اتجاه وسط البلد، مرورًا بامتداد شارع ٢٦ يولييه ثم مرورًا بمنطقة الإسعاف، مررت بذلك التقاطع بين شارعى الجلاء ورمسيس من جهة، وشارع ٢٦ يولييه من جهة أخرى، تساءلت: ماذا حدث؟ وماذا يحدث؟ ومن أين جاء كل هذا الضجيج؟ ومن أين جاءت هذه الهمجية؟ ومن أين جاء هؤلاء المتخلفون سفاكو الدماء؟

تقف عشر سيارات ميكروباص فى محطة الإسعاف، ويقف بجوار كل سيارة طفل أو شاب أو رجل كبير، يصيح كل منهم بأعلى صوته بكلمة واحدة هى كلمة (عمارة)، كلهم فى نفس واحد (عمارة)! أين يقع ذلك الحى؟ أنا لا أعرف، أنا أفهم أن يكون هناك داع للصياح إذا كانت كل سيارة تتجه فى وجهة مختلفة، مثلًا لو كانت هناك سيارة متجهة إلى بولاق وأخرى إلى إمبابة وثالثة إلى عمارة، لكان هناك داع للصياح. تمامًا مثل تخيل منظر عشرة باعة جائلين للفواكه، يجلس كل منهم أمام قفص به فاكهة مختلفة، برقوق أو خوخ أو مشمش أو تين أو فراولة، فينادى كل منهم على بضاعته، أما إن كانوا كلهم يبيعون فراولة، فما الداعى أن يصيح كل منهم دون توقف (فراولة)؟

هؤلاء الصائحون إما أنهم يعتقدون أن المارة ضعاف السمع، أو أنهم يعتقدون أن المارة مترددون فى الذهاب إلى (عمارة)، وبالتالي فإن الصياح هو أحد أساليب إقناعهم بالتخلص من ترددهم، أو أنه أسلوب تخويف للمارة الذين لا يريدون أصلاً الذهاب إلى (عمارة)، إلا أنهم بمرورهم فى هذا المكان يثيرون شهية الصائحين، فيكون الصياح للتخويف حتى يسرع الركاب بدخول السيارات دون تفكير.

وهناك احتمال أن يكون لهؤلاء الصائحين فائض هائل من الطاقة الصوتية التي لا يعرفون كيف يصرفونها، إلا باستهلاكها في الصباح حيث إنهم يعتقدون أن تراكم تلك الطاقة الصوتية داخل حناجرهم ضار بالصحة.

هناك كذلك احتمال أخير وهو أن تكون هذه حالتنا هي الطريقة العادية في الكلام.

الإسكندرية

(١)

فى صيف سنة ١٩٦٠ كانت هناك بقرة خشب، تقف على رصيف الكورنيش فى المسافة بين شاطئى كيلوباترا وسبورتيج، كانت تخرج الساندوتشات من فمها. هذا هو كل ما أدركته وأنا طفل فى السابعة من عمري، فأنا لم أفهم وقتها أن صاحب البقرة الخشب يبيع الساندوتشات، وأن والد الطفل يعطى البائع الثمن، وفى الوقت الذى يكون فيه الأطفال مشغولين بالنظر إلى فم البقرة، يكون البائع قد وضع الساندوتشات فى فتحة جانبية، تتحدر منها الساندوتشات إلى فم البقرة. كيف يستطيع الإنسان أن يبقى أطول فترة ممكنة فى عالم الطفولة ؟

ثم هناك كذلك حفلات سينما مترو الصباحية، أيام الجمعة والأحد، التى كانت تخصص بين التاسعة والعاشر صباحًا للأطفال، حيث تعرض أفلام الرسوم المتحركة (الكارتون) الأمريكية، وكنا نعرف أبطالها مسبقًا من مجلة ميكى الأسبوعية (الفأر المشاغب فى مغامراته مع القط - وكذلك البطة بطوط وبناتها الثلاث - لم أكن أعرف إن كانت سيدة أم رجلا هذه البطوط - الأستاذ عبقرينو حلال المشاكل - عم ذهب المليونير البخيل).

كنا نسكن خلال شهور الصيف شققًا مفروشة فى شاطئى كيلوباترا، ويذهب الأطفال مع أمهاتهم إلى تلك الحفلات باستعمال عربات الترام حتى محطة الرمل، كانت الشوارع فى تلك الأيام أقل ازدحامًا بكثير. ثم عندما كنا نخرج من دار السينما، كنا نجلس حول موائد مطعم

وكافتيريا (أليت Elite) لتأكل الجيلاتى. كان صاحبها اليونانى ما يزال موجودًا فى الإسكندرية، وقد أدركت بعد ذلك كيف أنه كان يشجع الأخوين (أدهم وسيف وانلى) بشراء بعض لوحاتهما التى كان يعلقها فى مطعمه.

(٢)

سنة ١٩٦٢ استأجرنا شقة فى شاطئ سيدى بشر، وكانت فى الطابق الأرضى من عمارة تقع على الكورنيش مباشرة (أول صف)، وكانت لها شرفة عريضة نصف دائرية تمكنا فيها يوم ٧/٢٦ من مشاهدة موكب الرئيس جمال عبد الناصر فى سيارته المكشوفة، وهو فى طريقه من المعمورة إلى المنشية، لإلقاء الخطاب السنوى بمناسبة الاحتفال بالعيد العاشر للثورة.

إلا أن الأهم بالنسبة لنا (أنا وأخى)، هو أننا كنا نقف ذات يوم فى هذه الشرفة، وإذا بنا نشاهد فتى أحلامنا، ومثلنا الأعلى، عبد الحليم حافظ، فى سيارة سبور حمراء صغيرة، كان يتحدث مع الناس فى الشارع ويسلم عليهم باليد. عرفنا أنه يسكن فى شقة قريبة، وهكذا أصبحت مسألة البقاء فى الشرفة صباح كل يوم، أطول مدة ممكنة، مسألة هامة جدًا. وقد زاد من تأثيره علينا فى ذلك الوقت أننا كنا قد شاهدناه فى دار سينما المنتزه، والتى تقع على بعد دقائق من شقتنا، فى فيلم (يوم من عمرى) مع زبيدة ثروت، حيث كان يلعب دور صحفى تقع الفتاة ابنة المليونير فى حبه.

(أندم لو حبيب وقاسيت/ وأندم لو عمرى ما حبيب/ بس لو الألقى
اللى أحببه/ واللى قلبى يروح لقلبه/ واللى تترتاح روحى جنبه / يومها
عمرى ما أبقى خايف) كنت فى الثامنة والنصف من عمرى، ولكنى
كنت أعيش كل يوم قصة حب جديدة. وأتذكر أنني كنت أجلس فى
فراشى مساء كل يوم، لأذاكر القائمة الكاملة للفتيات اللانى أحببتهن،

فأقول مثلاً رقم ١- البنت التى شاهدتها أول أمس فى فستان أزرق
٢- البنت التى شاهدتها صباح اليوم بحذاء أحمر.... وهكذا. كان يكفى
أن أستمع الى الأغنية فى الإذاعة مرة واحدة، حتى أبدأ فى حفظ
الكلمات واللحن، وذلك بتريدها مع الراديو عند إذاعتها كل مرة، لم
نكن قد عرفنا بعد شرائط الكاسيت. الطريف فى الموضوع أن أختى
الأصغر كان يعتقد أن عبد الحليم حافظ يسكن الى جوارنا، وذلك
ليذهب كل مساء الى دار سينما المنتزه، ليلعب دوره فى الفيلم.
حاولت أن أشرح له فكرة السينما ولم يكن مقتنعاً. إلا أنني عندما
ذكرت له أن هذا الفيلم يعرض فى القاهرة وفى الإسكندرية فى نفس
الوقت، احتار قليلاً ولم يعرف كيف يفسر تلك الظاهرة الغريبة.



فى صيف سنة ١٩٦٤ عدنا الى شاطئ كيلوباترا، وكانت لدينا الكابينة رقم ٤١٤ فى شاطئ ستانلى، وكنا نذهب نقضاء النهار هناك. لم تكن أمى توافق على أن نذهب للاستحمام فى البحر بدون مراقبة ومرافقة خادمة أو أكثر، كما أنها كانت تعارض دائماً كل ما يتعلق بممارسة أى أنشطة خاصة بالشواطىء. فمثلاً مسألة لعب كرة المضرب (الراكيت) كانت بالنسبة إليها مسألة خطيرة جداً، فإن الكرة يمكن أن تصطدم برأس اللاعب. هناك كذلك مسألة الذهاب بالسنانير الى أماكن صيد السمك، وكانت تعارض فى ذلك بحجة أن السنارة بها شص معدنى (الخطاف الذى يتعلق به الطعم)، وأن هذا الشص يمكن أن يخترق الجلد فى أى مكان ولا يخرج منه. هذه مجرد أمثلة قليلة ولكن الحقيقة أن أمى كانت مسكونة بما لا حصر له من المخاوف، مما أدى الى حرماننا (أنا وأخى) من تجارب الطفولة البريئة والمفيدة. إلا أن أكثر ما يعلق بذاكرتى ذلك العام هو كازينو ستانلى، والذى كانت تلعب به فرقة موسيقية غريبة حديثة، وكنت لأول مرة فى حياتى أرى وأسمع الجيتار الكهربائى.

فى العام التالى ١٩٦٥، اكتشفنا وجود شاطئ جديد خلف قصر المنتزه، وهو شاطئ المعمورة، والذى كان حتى ذلك العام ما يزال شاطئاً بكرًا، عمارات قليلة متناثرة، وكبائن من طابق واحد، يقع الى جوارها الممشى الذى لم يكن يفصله عن الرمال والماء تلك الأسوار القبيحة الموجودة حالياً، فكان يمكننا أن نذهب الى الرمال والماء فى أى ساعة من ساعات الليل والنهار.

كان المغنى الأمريكى (نيل ساداكا) ويمكن أن يكتب اسمه أحياناً (ساداكا Sedaka)، يغنى أغنيته الشهيرة (أوه كارول Oh Carol)، وكنت أعتقد أنني نيل ساداكا وأن لى صديقة اسمها كارول. كنت ما

زلت فى مرحلة الانتقال من الطفولة الى المراهقة (والتي لم تكن بها
أية مراهقة والعياذ بالله)، ولكنى رغم كل شئ كنت طفلا سعيدا.

Oh Carol, I am but a fool,

Darling I love you, though you treat me cruel,

You hurt me, and you make me cry,

But if you leave me, I will surely die.

كانت الأغنية المذكورة أعلاه هى أغنية الموسم، وكان محل السبن
البرازيلى بالمعمورة يذيعها بدون توقف، فكانت أدخل هذا المحل ومعى
ورقة نقدية فئة خمسة قروش، لأدفعها بكل خيلاء الى موظفة الخزينة،
فقطعتنى ورقة صغيرة مطبوعا عليها بالفرنسية كلمتين سحريتين
Chocolat glacé، أى مشروب الشيكولاته المتلجة، وكان ثمنه ثلاثة
قروش ونصف، وكنت أترك للبائع نصف قرش (تعريفة) إكرامية،
فكان يحينى تحية خاصة، وكنت أفق أحسى كوبي على مهل، وذلك
حتى أستمتع بالأغنية. كنت أذهب بعد ذلك الى ملعب الباتيناج، وكانت
هذه الرياضة على الموضة فى ذلك الوقت، فكانت أستأجر قبقاب
التزحلق ذا العجلات الصغيرة بقرشين صاغ فى الساعة.

فى ذلك العام ١٩٦٥، كنت قد حصلت على شهادة الابتدائية، وحيث
أننى قد أصبحت من حاملى الشهادات، فقد بدأت أشتري كتبًا وأقرأ.
وعلى رصيف ما فى نفس الشاطئ، وجدت نسخة من كتاب (الأيام)
لطه حسين، من إصدارات دار المعارف. كانت هذه هى البداية الحقيقية
لرحلة الثقافة، فقبل ذلك وحتى إجازة العام السابق، لم أكن أقرأ إلا
طرزان وأرسين لوبيين ومجلات سمير وميكى وسوبر مان وكروان
(هذه الأخيرة هى المجلة التى كانت قد صدرت لمدة عام واحد، وكان
رئيس تحريرها هو الكاتب المسرحى نعمان عاشور، فى محاولة
لإخراج مجلة أطفال مصرية مائة فى المائة). وأتذكر كذلك مجلة

السفباد والتي كانت تصدر في الخمسينيات، وكنت أعتبرها فى ذلك الوقت تخصص جيلا سابقاً على جيلى. بالإضافة الى طه حسين، فقد بدأت الانتظام فى شراء الأعداد الشهرية من المكتبة الثقافية (قرشان صاغ) وقرأ (ثلاثة قروش صاغ) ومجلة رسالة اليونسكو (ثلاثة قروش صاغ) ومجلة تراث الإنسانية (خمس قروش صاغ).

(٤)

كانت طفولتى سعيدة نسبياً، أما مراهقتى فكانت تعيسة. لا أستطيع أبداً أن أتذكر شقق المصايف فى الإسكندرية إلا بحسرة! سيدى بشر، العصابة، المعمورة، ميامى. كل ذلك بين عامى ١٩٦٦ و ١٩٧١ (بين سن الثالثة عشرة والثامنة عشرة). كل هذه الشقق ترتبط فى وجدانى بإحباطات عاطفية. فهناك دائماً منظر الأطفال الصغار وهم يلعبون فى الشارع أو فى حديقة صغيرة أسفل العمارة. وكانت أمى تحتفظ بى دائماً فى المنزل، سمح لى فقط بمراقبة هؤلاء الأطفال من النافذة فى محبسى. لا أدرى إلى الآن إن كان سبب خوفها علىّ هو البنات الصغيرات ذوات الضعائر والجونيئات؟ أم أن هذا السجن كان بسبب خوفها على شخصياً من الجيران لعدم قدرتها على التأقلم اجتماعياً مع الناس؟ أم أن هذا السجن كان بسبب ما ذكرته على لى من أنها كانت تخاف علينا أن وأخى من حوادث السيارات؟ أو هو خوفها أن نتعلم كلمات قبيحة أو أشياء ضارة من الجيران أو من أولاد الشوارع؟

ولكن كانت النتيجة من كل ذلك هى أنه كان قد تولد لى قدر كبير من الخوف من الشارع، وكذلك من الغرباء بشكل عام، ومن جنس البنات بشكل خاص، حتى أنسى كنت أتلعثم ويحمر وجهى خجلاً كلما اضطررت فيما بعد (وحتى رحلة الجامعة) الى التحدث مع فتاة أو

مع سيدة من الجيران، وذلك خوفاً مما يمكن أن يعتقد الناس في! خوفاً مما يمكن أن يقوله الناس على! أنا أعتقد مخلصاً أنني كنت أعاني في ذلك الوقت من حالة بارانويا حادة (إحساس بالاضطهاد وبمراقبة الآخرين للشخص المعنى بالحالة)! ولم أستطع أن أتخلص من تلك الحالة إلا بعد سنوات من البحث في علم النفس وفي علم الأمراض النفسية، وكذلك بعد ممارسة مهن مختلفة مثل الموسيقى والإرشاد السياحي.

وكنت قد وصلت الى نتيجة مؤداها أن تربية أمي المتمزئة كانت هي السبب الرئيسي في تعاستي خلال فترة المراهقة. وقد سألتني أمي مؤخرًا (سنة ٢٠٠٥) إن كانت تربيتها لنا (أنا وأخي) قد كانت أكثر تزمًا من تربية غيرها من الأمهات لأولادهن؟ فقلت لها (أعتقد أنني لم أتمكن من العثور على تربية أكثر تزمًا من تربيتك لنا، إلا في بعض الحالات داخل مستشفيات الأمراض النفسية).

في يوليو ١٩٦٨، كنا نسنأجر شقة في شاطئ ميامي، وكنت أجلس في الشرفة في الأمسيات ألعب موسيقى على الجيتار، وجاءت عديلة (الفتاة الريفية التي كانت تعمل لدينا شغالة) لتقول لي أن في الطابق الأسفل، استوفقتها ابنة أصحاب الشقة لتسألها عن موسيقى الجيتار التي تسمعها آتية من شرفتنا، وعن هو هذا العازف المجهول؟؟ وقد ذهبت عديلة أولاً إلى أمي لتخبرها بذلك، حيث إن عديلة كانت قد أدركت مدى سيطرة أمي على المنزل عامةً وكذلك علىّ أنا بصفة خاصة... كانت أمي قد أمرت عديلة بعدم إيلاغي بهذا الخبر (ويا دار ما دخلك شر). إلا أن عديلة الكريمة النفس الأبية، رفضت هذا الظلم البين الواقع علىّ وجاءت لتخبرني بما حدث، وأبلغتني برسالة الجارة وبرغبتها في رؤيتي، ليس هذا فقط بل إن عديلة كانت قد طالبتني بضرورة أن أثور على أمي، وبأن أضع حدًا لتدخلها في حياتي....

ولكنى لم أفعل أى شىء... لا سألت فى الفناة، ولا حتى ثرت على
 أمى... بل على العكس إذ بدلا من التمرد فقد زاد الانصياع، وبدلا من
 أن تكون لى مجموعة أصدقاء أخرج معهم فقد كنت أكرس كل وقتى
 لأمى، وكان أخى الأصغر دائم للسخرية منى، وكنت أتقبل هذه السخرية
 بصدر رحب، متخيلا نفسى شهيد الواجب... فأنا أضحي بنفسى فى سبيل
 سعادة أمى...؟؟؟ كنت فى الخامسة عشرة من عمرى مسالما جدا، لا
 أنشغل فى حياتى إلا بالذاكرة فى أثناء العام الدراسى، وبالقراءة وعزف
 الموسيقى وحفظ رباعيات الخيام عن ظهر قلب (لبست ثوب العيش لم
 أسشعر وحررت فيه بين شتى الفكر.... إلخ) فى أثناء الإجازة الصيفية.
 ولم أبدأ فى التمرد على أبوى إلا بعد ذلك بسبعة أعوام.

(٥)

بدأ ضغط الوالدين الذى كنت قد عانيت منه خلال فترة المراهقة
 (١٩٦٦-١٩٧١) يخف قليلا بدخولى كلية الطب سنة ١٩٧١، حيث
 إن مستقبلى حسب مفهومهما كان قد أصبح مضمونا. وهكذا أتيج لى
 قدر من حرية الحركة، فتمكنت من الذهاب وحدى مثلا الى السينما،
 وكنت أختار أفلاما لا يقبل عليها عادة جمهور كبير، فأنا أتذكر مثلا
 خلال العام ١٩٧٢/٧١ مشاهدة أفلام من نوعية (الموت فى فينيسيا /
 لفيسكونتى - مكبث / لرومان بولانسكى). وكنت أنم بشدة على
 وجودى فى طنطا طوال العام محروما من فرص مشاهدة مثل تلك
 الأفلام، والتي لم تكن تُعرض إلا فى القاهرة والإسكندرية، فكانت
 أنتهز فرصة وجودى خلال شهور الصيف مع الأسرة فى الإسكندرية
 لتعويض هذا النقص.

إلا أن عشقى للموسيقى كان قد بدأ يتضح بشدة، بحيث أصبح
 أقوى من أى شىء آخر فى الحياة، وكنت أذهب فى تلك الفترة وحدى،

أو مع شلة أصدقاء أخی، الى حفلات الماتينيه التي كانت تقيمها بعض الفرق الموسيقية في حدائق قصر المنتزه، أيام الجمعة والأحد. كان رسم الدخول بتذكرة موحدة قيمتها عشرون قرشاً، وتتضمن مشروباً كان في الغالب شايًا مثلجًا. كنت أذهب صباح الجمعة الى سلامك قصر المنتزه، حيث كانت تلعب فرقة (المعاطف السوداء Black Coats)، وكان مؤسس الفرقة ورئيسها هو إسماعيل الحكيم، ابن الكاتب المعروف توفيق الحكيم، وكان قد تخرج من معهد السينما. أتذكر كذلك من أفراد فرقته، أشرف سلماوى الجيتاريسست، وكذلك مجدى الحسينى عازف الأورج المعروف بعد ذلك.

وكنت أذهب صباح الأحد الى فرقة (القطط الصغيرة Les Petits Chats)، وكان بها موسيقيون فطاحل من نوعية هانى شنودة وعمر خيرت (وقد اشتهرا جدًا بعد ذلك)، وكان هناك كذلك بينو (عازف الجيتار)، وتيمور كوته (عازف الباص جيتار)، ولوكاس (عازف آلات النفخ)، والمغنى صبحى بدير (سيصبح بعد ذلك مغنى أوبرا معروف). أما الفرقة الثالثة التي كانت تتازعهما الجمهور فهي فرقة (القطط The Cats)، وكانت تعزف فى فندق سان استيفانو، وفيها تعرفت على موهبة فذة فى العزف والتلحين وهو (عزت أبو عوف)، الطبيب سابقاً، والممثل الممتاز لاحقاً. وكذلك أتذكر من أفراد الفرقة المغنى (صديق قلينى). هؤلاء كانوا أبطالى خلال تلك الأعوام ١٩٧٣/٧٢/٧١. كنت أذهب الى تلك الفرق مبكرًا قدر الإمكان، لأجلس فى أقرب مكان من خشبة المسرح، حيث يقف الموسيقيون بآلاتهم الموسيقية، وخلفهم صناديق ضخمة هى آلات تكبير الصوت وسماعاتها (أمبليفايرز). وعندما يبدأ العزف أغرق فى بحر من السعادة، ولا أعرف كيف ألاحق الآلات الموسيقية فى عزفها، كنت أشعر كأنى أحتاج إلى عشر أذان حتى أضع كل واحدة منها إلى

جوار واحدة من الآلات الموسيقية، وكذلك كأتى كنت أحتاج الى عشر عيون لأضع كل واحدة منها أمام كل عازف. كنت أظل منبهراً هكذا، ومشدوهاً تماماً طوال مدة العرض، وكانت الساعات الثلاث تمر كما لو كانت دقائق ثلاث.

(٦)

فى يوليو ١٩٧٥، وكانت تلك هى أول إجازة صيف أقضيها فى الإسكندرية ومعى سيارتى الجديدة الفولكس، والتي كنت قد اشتريتها من فرنسا قبلها بعام. كنا شلة من ثلاثة أشخاص، أنا وأخى وأحد الأصدقاء. وكانت لهذا الصديق شقة يقيم فيها بمفرده فى اسبورتينج، فقد كان طالباً فى كلية الآداب بالإسكندرية. قلنا لأنفسنا: "شقة وعربية مش ناقص إلا الحريم". وحيث إن السيارة سيارتى، والشقة شقة الصديق، فقد تكفل أخى بالباقي. ركنت السيارة أمام ملهى ليلى على طريق الكورنيش اسمه النسر الأحمر، ونزل أخى وبقينا أنا والصديق فى السيارة. عاد بعد ربع ساعة ليقول لنا: انزلا. نزلنا ودخلنا المحل وجلسنا إلى مائدة وطلبنا علب بيرة، وكان ثمن العلبه المستورده فى ذلك الوقت ٧٥ قرشاً، ثم جاءت إحدى الفتيات لتجلس إلى مائدتنا، وأخرجت قطعة من الحشيش لترينا إياها. فإذا بهذه القطعة تسقط على الأرض!!؟؟ انحنيت الفتاة تبحث عن القطعة، وجاءت فتيات أخريات لمساعدتها، ولينتهى هذا الموقف بخروجنا من المحل متهمين بسرقة قطعة الحشيش!!؟؟ وعندما كنا ما نزال جالسين فى السيارة أمام باب الملهى شاهدنا سيارة بوكس تقف أمامنا، وينزل منها عدد من الجنود وضابط ويدخلون المحل. نتمكن من موقعنا بالسيارة أن نرى الضابط وهو يصفع عددًا من الموجودين بالمحل، بعد إخراجهم منه، وحمدنا الله أننا كنا فى السيارة، وقتعنا من الغنيمه بالإياب.

فى يوليو ١٩٧٧، كنا أنا وأخى نقضى إجازة أسبوعين لدى صديقين آخرين هما ناجى وصبرى، وذلك فى شقة والدهما بكيلوباترا. كنا نحن الأربعة تقريبًا فى نفس السن، بفارق عامين بين أصغرنا وأكبرنا. كان الفارق الرئيسى بيننا (أنا وأخى) وبينهما، هو أنهما كانا قد حصلنا على حريتهما مبكرًا جدًا. كان ناجى قد لخص سبب ذلك فى أنهما كانا قد تمردا على والديهما مبكرًا جدًا، وإن كان هذا التمرد لم يمنع قيام مودة شديدة وحب متبادل بين الأخوين والديهما. لم تكن حقيقة ضرورة التمرد المبكر على الوالدين قد أصبحت ناصعة تمامًا فى ذهنى كما هى الآن.

كان للأخوين ناجى وصبرى خبرة كبيرة فى الحياة، وخاصة فيما يتعلق بموضوع النساء، فأسلمنا لهما أنا وأخى القيادة، وأصبحنا نتبعهما كظلهما فى كل مكان يذهبان إليه فى الإسكندرية، متابعة المرید لأستاذه، على طريق الكورنيش، أو على شاطئ البحر، أو فى محطة الرمل.... إلخ. وكنا ننبر تمامًا بالطريقة التى يتقدم بها أحدهما فى الطريق الى أى أنثى يعرفها أو لا يعرفها، وحدها أو بصحبتها أشخاص آخرون، ليحدثها هكذا حديثًا لطيفًا ودودًا ساخرًا، لترد عليه بعد ذلك بمنتهى البساطة، وتضحك من قلبها. كنت أعتقد جازمًا أن ما يقوم به هذان الأخوان هو نوع من السحر.

يتولى بعد ذلك أحدهما تقديمها لنا، وتدعوها جميعًا بعد ذلك الى ركوب السيارة (الفولكس فاجون) معنا. كان اثنان منا يركبان فى المقعد الخلفى معها، واثنان آخران فى المقعدين الأماميين، ليتولى أحدهما قيادة السيارة. ثم بعد ربع ساعة نستبدل الأماكن، بحيث ينتقل الاثنان اللذان كانا فى المقعد الخلفى مع الفتاة، إلى المقعدين الأماميين وهكذا. كانت المسألة مجرد مناقشات بريئة بالأيدي، وكنت كالمعتاد

أشعر بحرج بالغ، وكنت أقل الأربعة إقبالا على المشاركة، وكان ذلك يثير في الأغلبية المطلقة من الحالات ضحك الفتيات، اللاتي كن يغادرن السيارة في الأغلبية المطلقة من الحالات ضاحكات مسرورات. كنت في الرابعة والعشرين من عمري.

وذات ليلة من ليالي آخر يوليو من نفس العام، عرفنا أن حفلا سيقام في الهواء الطلق على رمال شاطئ العجمي، تحت مسمى (ساند ستوك Sand Stock)، على وزن مهرجان موسيقى كان قد أقيم في أمريكا سنة ١٩٦٨ تحت اسم (وود ستوك Wood Stock). كنا قد قررنا الذهاب، وكانت السيارة تسهل حركتنا كثيرا. لم نفكر قبل الذهاب إلا في شراء زجاجة نبيذ أحمر حلو أباركة، لاحتسائها هناك على الرمال لزوم الفرقة، كان ثمن الزجاجة ستين قرشا (الآن ثمنها ثلاثون جنيها أي خمسون ضعفا). عندما وصلنا الى مكان الحفل اكتشفنا أن ثمن تذكرة الدخول هو ثلاثة جنيهات. مفاجأة غير سارة، وذلك لأن المبلغ الموجود لدينا في كل جيوبنا لم يكف بيلغ نصف المطلوب. ماذا نفعل ؟

دنا حول الحواجز التي كان قد أقامها منظمو الحفل، وكانت مكونة من أعمدة خشبية تصل بينها أقمشة من نسيج الخيامية، ولم نجد أي منفذ. إلا أنه عند وصولنا إلى خلف المسرح الخشبي الذي كانت تقف عليه الفرق الموسيقية، اكتشفنا أنه يمكننا أن نمر أسفله. وكان هذا هو ما فعلناه. كانت مظاهر الثراء السريع التي صاحبت بداية سياسة الانفتاح، واضحة جدا في ملابس وتصرفات الشباب داخل الحفل. تتابعت الفرق الموسيقية على المسرح، وأذكر منها مثلا فرقة (سترينجز Strings)، وكان صاحبها هو جورج كاركور، وقد سمح القدر بأن أحل محل هذا الشخص كعازف للباص جيتار مرتان بعد ذلك. الأولى في فبراير ١٩٨٠، وكانت الفرقة في شاليمار

بالهرم، وكان جورج غائبا بسبب الجيش، والمرة الثانية كانت فى فبراير ١٩٨٤ فى فندق هيلتون رمسيس، وكان جورج قد ذهب فى اجازة قصيرة الى إنجلترا.

دام هذا الحفل عشر ساعات، من التاسعة مساءً الى السابعة من صباح اليوم التالى، وكانت أجمل العروض الموسيقية على الإطلاق هى فرقة جاءت الى المسرح مع الأضواء الأولى للفجر، عندما أطفأت إدارة المهرجان الأضواء الكهربائية.

كانت الفرقة مكونة من أربعة عازفين، تعرفنا على الفور على عازف الجيتار (حسين الإمام) وذلك لأنه كان قد ظهر كمثل فى بعض أفلام والده المخرج حسن الإمام، وأدركنا كذلك أن أخاه (مودى الإمام) هو عازف الكى يورد، وهو الذى سيصبح فيما بعد واحداً من أفضل واضعى الموسيقى التصويرية فى السينما المصرية. أما العازقان الآخران فكانا أمريكيين. استمتعنا جداً بعزف هذه الفرقة لمجموعة من أغاني الهارد روك، للعديد من الفرق الأمريكية، ولكنى ما زلت أتذكر أداء هذه الفرقة المتقن جداً لأغاني الألبوم الأخير للمغنى الأمريكى الزنجى الكفيف (ستيفى واندر Stevie Wonder).

المشكلة الوحيدة تلك الليلة هى أننا عندما حاولنا فتح زجاجة النبيذ، استعملنا مفتاح السيارة الذى انكسر الى قطعتين، ولكننا استأنفنا حضور الحفل حتى نهايته، ثم نزلنا أنا وناجى الى محطة الرمل الساعة السابعة صباحاً، باستعمال المواصلات العامة، وكان الواقع مريباً بعد تلك الليلة الخيالية الحاملة. اضطررنا الى الانتظار ساعة أمام ورشة تصليح مفاتيح، حتى فتحت أبوابها فى تمام التاسعة، وتمكن الأسطى الماهر من صنع مفتاح بديل مستهدياً بالقطعتين المتبقيتين. عدنا بنفس الأتوبيس الى العجمى، لنجد أن عصام وصبرى ينامان على رمال الشاطئ فى ظل أحد المباني، والحمد لله فقد تمكنا من فتح السيارة وإدارة محركها بالمفتاح الجديد.



(٨)

فى يناير ٢٠٠١ كنت مع شركة استثمار للسياحة المصرية وشركة كوني للسياحة الفرنسية، نقوم بعمل برنامج سياحى كانوا يسمونه (شامبليون)، وفيه كان السياح يصلون الى الأراضى المصرية بالطائرة الى الإسكندرية مساء السبت، ثم يقضون يوم الأحد فى زيارة أشار

الإسكندرية، المتحف اليوناني الروماني وعمود السواري وكوم الشقافة ومقابر كوم الدكة، كل هذا قبل وجبة الغداء أى من ٩ ص الى الواحدة ظهراً، ثم بعد الغداء، أى من ٢ م الى ٥ م، زيارة قلعة قايتباي وجامع المرسي أبى العباس (وأضيفت حالياً زيارة مكتبة الإسكندرية)، وكل هذه الزيارات كما هو واضح زيارات دسمة جداً، تحتاج الى يومى زيارات لا الى يوم واحد، ولكنى كنت كمرشد سياحى مضطراً الى اختصار تعليقاتى حتى أتمكن من عمل كل هذه الزيارات فى هذا الوقت المحدود وذلك على أمل استئناف الحديث مع سياح مجموعتى عن مصر البطلمية، فى أثناء زيارات المعابد البطلمية فى الصعيد (بندرة وإسنا وإدفو وقيلة).

كنا نقيم فى فندق فلسطين فى حدائق قصر المنتزه، وكنا مضطرين بسبب الحوادث الإرهابية الى البقاء فى صحبة سيارة شرطة، كانت تأتى إلينا فى الفندق صباحاً، وتظل معنا وفى انتظارنا طوال ساعات الزيارات، وتنتقل معنا بين المواقع الأثرية... جاغنى صباح يوم ضابط صغير بنجمة واحدة، وبعد صباح الخير والذى منه، بدأ فى امتداح زميلى المرشد السياحى الذى كان يرافقه نفس هذا الضابط فى نفس هذا البرنامج أثناء تنفيذ الأسبوع السابق!! وأردت ببراعة شديدة معرفة سبب تميز المرشد زميلى، هذا التميز الذى جعل هذا الضابط يمدحه كل هذا المديح، لعلى أستفيد منه شيئاً لتحسين أدائى الإرشادى!! فما كان من هذا الضابط إلا أن قال : تصور قوة المرشد زميلك!! لقد استطاع أن ينهى زيارات اليوم كله قبل وجبة الغداء!! لعلك تستطيع أن تفعل مثله وذلك حتى أتمكن من الغداء فى منزلنا!!!

أسوان

(١)

خرجنا من الفندق الواقع أعلى التل حوالى الثالثة ظهرًا، وذلك لنسير فى ممر منحدر طويل تحت الأشجار، حتى وصلنا إلى فندق (أولد كتاراكت)، مررنا أولاً بحديقته الجميلة، وسرنا منظر شرفاته الخشبية، كان الجو دافئاً رغم أننا كنا فى أول مارس. كانت جميع الفنادق مزدحمة ذلك العام، كانت الأغلبية للسياحة الداخلية المصرية، وكانت الأقلية للسياحة الأجنبية، وذلك لأننا كنا فى الموسم السياحى ١٩٦٨/٦٧، وهو الموسم الذى عشنا فيه جواً من الإحباط العام بسبب نكسة يونيه.

وكانت حكومة مصر تشجع المصريين على السياحة الداخلية من خلال برنامج (اعرف بلادك)، وهو برنامج يسمح للأفراد وللأسر بالذهاب والعودة، بين القاهرة والأقصر وأسوان، فى قطارات عربات النوم الفاخرة، بالإضافة إلى الإقامة الكاملة فى فنادق ثلاثة نجوم، لمدة ثلاث ليالى، كل ذلك من القطار إلى الفنادق إلى برنامج الزيارات الأثرية والسياحية إلى الوجبات اليومية الثلاث، كل ذلك بسبعة جنيهات مصرية فقط لا غير.

هذه هى أول مرة أحضر فيها إلى أسوان، كنت فى ذلك العام فى الصف الثالث الإعدادى، وكنت قد بدأت عادة كتابة المذكرات اليومية فى كراسات خاصة، وهكذا فإبنى ما زلت أحتفظ بالكراسة التى كنت قد كتبت فيها ذكريات تلك الرحلة.

بعد أن خرجنا من فندق (أولد كتاراكت) ذهبنا إلى كورنيس النيل، ودخلنا محلاً كبيراً للعاديات الشرقية (بازار)، وذلك لأن السيدة والدتي كانت تريد شراء خاتم بفض جعران، وكان البائع قد أقنعها بأن فص الجعران حقيقي، وأن ثمنه هو ثلاثة جنيهات، وهو مبلغ هائل بمعدلات تلك الأيام، نجحت أمي في مناقشة البائع في السعر حتى حصلت على تخفيض قدره ربع جنيه، شئ مضحك.

أتذكر كذلك أنه كان قد لفت انتباهي كتاب من جزأين، عن المدرسة الانطباعية في فن التصوير الأوروبي (مانيه - مونيه - إلخ...)، وكانت طموحاتي الثقافية قد بدأت في الظهور، إلا أن سعر الكتاب كان مرتفعاً جداً فلم أتمكن من شرائه، كان السعر سبعين قرشاً.

عندما عدنا إلى فندقنا أعلى النيل، وكان اسمه فندق النصر (هل لهذه التسمية علاقة بما حدث في يونيو ١٩٦٧ ؟)، ويشغل موقعه جالياً فندق بسمه، خمسة نجوم، ويقع أمامه حالياً متحف النوبة، اكتشفت أثناء تناول طعام العشاء في مطعم الفندق، وجود دودة شبيهة بدودة القز في طبق البسلة، فلم أستطع إنهاء عشائي (كل هذا مسجل في كراسة مذكراتي). خرجنا من المطعم لتجتمع في حديقة الفندق، وذلك لممارسة لعبة (عروستي)، وهي اللعبة التي تتكون من اختيار شخص ما يُطلب منه أن يخرج بعيداً عن المجموعة، وذلك حتى تتفق المجموعة على اختيار شئ ما، يعود الشخص إلى المجموعة ويبدأ في سؤال كل فرد منها سوألا واحداً يحاول أن يستدل به على ما هو الشئ المختار، وكان هذا الشئ الذي اخترناه لحظتها هو آلة التصوير، وأتذكر أنني قلت (عروستك بتغمز لي)، مما أضحك الجميع، وذلك إشارة إلى حركة الغلق والفتح في عين العدسة .

اكتشفنا وجود مغنية قديمة من جيل عبد الوهاب معنا في حديقة

الفندق، وهى السيدة (لور دكاش)، وهى مغنية لبنانية تقيم فى مصر منذ طفولتها، واشتهرت لها أغنية (أمنت بالله)، وهى الأغنية التى سترقص على نغماتها فيما بعد كل نجمات الرقص الشرقى، وبالعجب. كان مع المغنية ابنها وهو شاب صغير من سننى، وكان طويل القوام وأشقر، ويحمل دائماً آلة جيتار فى حقيبتها على ظهره، كما كان يفعل عدد كبير من شباب العالم ذلك العام، فإنه بالرغم من الإحباط الذى كنا نعيش فيه فى مصر، كان شباب العالم يحتفل ذلك العام ببداية عصر الحرية، ثورة الشباب فى فرنسا مايو ١٩٦٨ على القيادة القديمة الممثلة فى ديجول، مهرجان موسيقى الود ستوك فى أمريكا، إلخ.... وكنت قد ذهبت مع أمى فى يونيو من العام السابق إلى محل الموسيقى (بابازيان) بشارع عدلى، وذلك حيث اشتريت جيتاراً كان ثمنه ١٢ جنيهاً.

كان أحد أصدقاء أبى يعمل مهندس حقن فى موقع السد العالى، وكان قد دعانا إلى منزله الواقع فى مساكن كيماء، خلف مصانع الكيماويات المعروفة بنفس الاسم، هناك تعرفنا على زوجته وأطفاله، ووجدنا كذلك شاباً روسياً يعمل فى مشروع السد العالى، وكان يشرح لصديق والذى طريقة استعمال آلة التصوير روسية الصنع. عندما عدنا إلى الشارع لاحظت وجود كئيب يعرض كتباً، ذهبت إليه فوجدت كتاباً فى تعليم اللغة الروسية لأبناء العربية ويتكون من ثلاثة أجزاء. تعيدنا أجواء فيلم يوسف شاهين (الناس والنيل) إنتاج ١٩٧٠، إلى تلك الفترة الجميلة من تاريخ المدينة، الفترة التى تمثلت فيها بوضوح الصداقة بين الشعبين المصرى والروسى، وكذلك فإن هناك رواية الأديب المصرى (صنع الله إبراهيم) التى تدور أحداثها فى ذلك الزمان فى أسوان واسمها (نجمة أغسطس).

BLUE GUIDE
EGYPT



لم أعد بعد ذلك إلى أسوان إلا في يوليو ١٩٨٤، عندما كنت مع اثنين من أصدقائي قد قررنا دراسة آثار مصر في منطقة الصعيد، استعدادًا لدخول امتحان وزارة السياحة، للحصول على ترخيص إرشاد سياحي.

كنا قد درسنا منهجًا نظريًا في إيجوث (قطاع التدريب بالطابق الرابع بمبنى فندق الكونتينيانتل بميدان الأوبرا) لمدة أربعة أشهر، ثم قررنا أن ندرس هذه الآثار عمليًا على الطبيعة، فأخذنا قطار الصعيد من محطة كوبري الليمون بباب الحديد الساعة السابعة مساءً، وقد وصل هذا القطار إلى أسوان الساعة الثالثة ظهر اليوم التالي، أي أن الرحلة قد استغرقت عشرين ساعة، وإذا عرفنا أن المسافة هي ٩٠٠ كم، يمكننا بسهولة حساب متوسط سرعة القطار وهي ٤٥ كم/ساعة.

عندما وصلنا إلى ميدان محطة أسوان، كان الجو حارًا جدًا، اتجهنا فورًا إلى بيت شباب أسوان، والذي يقع في ميدان المحطة، وأخذنا ثلاثة أسرة، ووضعنا حقائبنا في دولا ب واحد، أغلقناه بقل ومفتاح كنا قد أحضرناه معنا من القاهرة، نمنا ساعة ثم قررنا الخروج في هذا القبط لزيارة قبر عباس العقاد، وكذلك لزيارة المسلة الناقصة، وحتى تصبح المهمة مستحيلة فقد قررنا الذهاب إلى ذلك القبر وتلك المسلة مشيًا على الأقدام! هل كنا نحاول توفير خمسين قرشًا كنا سندفعها لسائق التاكسي؟ (يكلف هذا المشوار الآن بعد عشرين عامًا تقريبًا على الأقل خمسة جنيهات).

بعد زيارة القبر والمسلة اضطررنا إلى العودة إلى المدينة باستعمال التاكسي، ثم مررنا على الأقدام بشارع السوق، حتى اكتشفنا مطعمًا شعبيًا يقدم وجبة أرز وملوخية وفراخ بمبلغ ١٢٥ قرشًا (يا بلاش - ماذا حدث للأسعار؟ تكلف هذه الوجبة الآن في نفس المكان

خمسة عشر جنبها)، وما زلت أحتفظ بعادة كتابة المذكرات اليومية.
عدنا إلى بيت الشباب الساعة التاسعة مساءً، وبعد دوش بارد
وحيث إن الجو كان قد تحسن كثيراً، جلسنا فى صالون البيت أمام
شباك مفتوح، وبدأنا القراءة فى الكتب التى كنا نحملها معنا عن آثار
مصر، وذلك استعداداً لزيارة معبد الإلهة إيزيس على جزيرة (فيلا)
صباح اليوم التالى بإذن الله.

كان مطلوباً منى أن أقرأ الموضوع فى كتاب بالإنجليزية اسمه
المرشد الأزرق (بلو جايد)، وأن ألخص الموضوع كتابة فى عدد من
الصفحات. كنا نجلس هكذا هادئين فى صالون بيت الشباب، عندما
دخلت فجأة فتاة أوروبية، غالباً إنجليزية، نظرت إلى سُذرا، وخطفت
الكتاب من يدي قائلة: (يا حرامى، حتى حقيبة يدي فتحتوها وسرقتموا
منها الكتاب!) لم أرد عليها إطلاقاً، أخذت هى الكتاب ومشت، ذهلت
تماماً من توجيه تلك الإهانة إلى هكذا علناً، ذهبت لتطمئن على
أشائها وعادت بعد دقيقتين لتعترض قائلة إنها أسفة جداً، فقد وجدت
نسختها فى حقيبتها لم تمس، إلا أنها كانت قد سرقت عدة مرات خلال
الأيام الماضية أثناء إقامتها فى بيت الشباب هذا، مما جعلها تتشكك
فى كل المصريين، ثم إنها مندهشة تماماً أن تجد هذا الكتاب فى يد
شاب مصرى، فإن المصريين لا يقرأون تاريخ بلادهم إطلاقاً حتى
باللغة العربية، ناهيك عن قراءته باللغة الإنجليزية.

الأقصر

(١)

وصل القطار الساعة الثالثة صباحًا، بعد أن قطع المسافة من القاهرة في خمس عشرة ساعة متأخرًا أربع ساعات فقط عن ميعاد وصوله!! بت الليلة في لوكاندة المحطة، وهو مبنى من القرن التاسع عشر ملئ بالأشباح!! فلم يغمض لى جفن حتى شروق الشمس عندما ذهبت إلى لوكاندة أخرى، لوكاندة أمون إلى الجهة الأخرى من ميدان المحطة، وهو المكان الذى كان مكتوبًا لى أن أبقى فيه حوالى ستة أشهر أى إلى أوائل مايو.

هذه المرة نمت باستغراق ولم أستيقظ إلا فى الثانية بعد الظهر. دوش سريع وحلاقة ذقن، وطبق فول بالبيض أسفل اللوكاندة، ثم تاكسى سرفيس إلى الكرتك حيث بقيت حتى غروب الشمس.

عدت مشيًا عن طريق الكورنيش، حوالى ثلاثة كيلومترات، إلى معبد الأقصر الذى يضاء ليلا، وبقيت فيه ساعة، وفجأة أصبحت فريسة التعاسة، والعلاج الناجح فى هذه الحالة هو زجاجة أو زجاجتان من البيرة المثلجة فى تراس الأولد ونتر بالاس، وهأنذا أشعر بالنشوة التامة عندما وصل عند الزجاجات إلى أربع!!

وفى تلك اللحظة العبقرية بالذات، ويا محاسن الصدف - وأصلها ويا ما أحسن الصدف - مر أمامى صاحب مكتب سياحى يقع فى سور الونتر بالاس، وكان يعرفنى منذ مايو الماضى عندما عملت مع شركته كمرشد لغة فرنسية فى موسم أوبرا عابدة، هلل فرحًا قائلاً: مش معقول لقد كنت أبحث يانسًا عن مرشد جيد لزبانن فى آى بى!

لقد أرسلك الله لى! اذهب فوراً بحقيبتك إلى مركب جولدن بوت، هناك كابينة محجوزة للمرشد، وهم سيقلمون فى اتجاه إسنا بعد ساعة. وكانت هذه هى بداية موسم عمل جيد جداً، حوالى ستة أشهر عمل شبه يومى بدون انقطاع، يا خسارة يا سياحة!!!

(٢)

كنت على أحد المراكب الصغيرة لشركة بيراميدز للسياحة، وكنا، أنا والمجموعة السياحية التابعة للشركة الفرنسية ريف فاكانس، قد قمنا بعمل زيارة معبدى الأقصر والكرنك فى الفترة الصباحية، ثم عدنا إلى المركب حيث جلست فى البار مع عدد من الزبائن.

بعد الغداء ذهبت إلى فندق الايتاب، حيث يعمل صديقى يسرى عازفاً للدرمز مع فرقة النايث كلوب الموسيقية. بقيت معه حتى ٩ م ميعاد عمل الفرقة، وعندما علم عازف الجيتار الباص بوجودى، طلب منى أن أحل محله تلك الليلة، فوافقت فوراً وصعدت معهم إلى المسرح، ولعبت معهم طوال السواريه.

وأثناء السهرة جاء بعض السياح الفرنسيين من زبائنى لحضور عرض الفرقة، وكانت من بينهم ايزابيل! عندما عدت الواحدة صباحاً إلى المركب ودخلت كابينتى، سمعت دقاً على باب الكابينة، فتحت الباب ووجدت ايزابيل واقفة، وفى يدها ورقة سلمتى إياها، وانسحبت من أمامى فوراً!!!

بدأت أقرأ: (.....عينك تدفناننى أكثر مما تفعل شمس مصر، ابتسامتك تضىء لىالى، من أجلك سأقيم معبداً للحب، وفيما بعد سأحنطك فيه حتى أحتفظ بك حتى آخر الزمان، أنت أيها الأبدى، أنت يا من تسود الكون، سأهيك قلبى وقلابى، روحى وجسدى،)!!!

بقيت بعض الوقت محتاراً ماذا أفعل، وذلك لقلّة نفّتي بنفسى، فقد اعتقدت أولاً أنها لعبة أو تسلية أو مقلب!!
ولكن بعد ذلك تغلبت الأفكار الإيجابية على الأفكار السلبية، وقلت فى نفسى: (أخيراً وبعد طول انتظار، جاءت فتاة من بلاد الفرنجا لتقول لى هذا الكلام).

كانت إيزابيل هى أول امرأة فى حياتى أقيم معها علاقة كاملة. بعد ذلك وخلال ثلاث سنوات كنت أحاول انتهاز كل الفرص المتاحة. عندما قابلت زوجتى وحكىتها لها قالت: (خسارة أنك قد أضعت أجمل سنوات عمرك فى تلك البتولية المضحكة).

إلا أن الآراء تتفاوت، فعندما حكيت نفس الشىء لأحد جيرانى (سليم)، قال (يا بختك أنك استطعت أن تحافظ على عذريتك طوال تلك السنوات، وبالتالي استطعت أن تدخر كل طاقتك للدراسة والثقافة). وحتى الآن لم أصل إلى رأى قاطع فى هذه المسألة.

(٣)

عندما بدأت العمل فى مهنة الإرشاد السياحى سنة ١٩٨٥ كنا ألف مرشد، ويزيد عددنا حوالى ١٠٠ كل عام، أما الآن فقد أصبح عدد المرشدين يتعدى العشرة آلاف ويزيدون حوالى ٥٠٠ كل عام!!
وبالتالى فإن قيمة المرشد نقل بالتدريج!!

أتذكر أنه فى أول مجموعة سياحية طويلة لى (من القاهرة إلى الأقصر والعودة) وكانت مع شركة سفنكس، أن جاءت سيارة الشركة تنقلنى إلى مطار القاهرة!! وفى الأقصر بالمثل جاءت سيارة الشركة لتنقلنى من المطار إلى المركب!! وعندما اكتشف مدير المركب أنه ليس لى كابينة خصص لى الجناح!! وكذلك كان لى مطلق الحرية فى ترتيب زيارات البرنامج بدون تدخل أى شخص....

أما الآن فإن المرشد المسكين يدفع من جيبه أجره انتقالاته الداخلية، بل حتى في بعض الأحيان يضطر إلى دفع ثمن تذكرة الطائرة من جيبه، ليستأنف العمل مع مجموعته في الصعيد، بل وقد حدث كذلك أن اضطر المرشد إلى دفع ثمن إقامته، إما على المركب أو في فنادق مدن الصعيد المختلفة، بما في ذلك من تكاليف إضافية يدفعها المرشد مضطراً، في الوقت الذي أصبحت فيه أجرته اليومية الآن، أقل مما كانت عليه منذ عشرين عاماً!!! بالإضافة إلى ذلك أصبح لأشخاص عديدين حق التدخل في عمل المرشد! فبسبب زيادة عدد المراكب من خمسين مركباً سنة ١٩٨٥، إلى حوالي ثلاثمائة مركب الآن، وازدحام هويس إسنا في الذهاب والإياب (أى في صعود النيل وفي هبوطه)، أصبح لمدير المركب الحق في أن يطلب من المرشد إنهاء زيارة البر الغربي (خمس مناطق: وادى ملوك - وادى ملكات - دير بحرى - أشراف - معبد هابو) في ثلاث ساعات مثلاً، وذلك لرغبته في أن يكون أول من يعبر الهويس، بدلا من الانتظار عدداً من الساعات لا يعلمه إلا الله ... ثم إن هناك مشكلة الأمن، واضطرار السياح إلى اصطحاب سيارة شرطة في كل تنقلاتهم (مثلاً للذهاب إلى زيارة معبد دندرة)، وذلك مما يحد كثيراً من حريتهم في الحركة بسبب دواعٍ أمنية، وأصبح على المرشد ضرورة تبرير كل ذلك للسائح !!!!!!

